سيميائيّة التّشاكل المكاني في ديوان سقط الزّند " نماذج شعريّة"

The semiotics of spatial morphology in Diwan Fall al-Zind "Poetic models"

Mustapha Mernas *[1] **ط.د/ مرناس مصطفى**

جامعة أمحمد بوقرة – بومرداس-،35000، الجزائر

m.mernas@univ-boumerdes.dz

khaira bendahoua [2] **د.بن ضحوى خيرة**

جامعة أمحمد بوقرة – بومرداس-،35000، الجزائر

https://orcid.org/0000-0003-4068-2264

k.bendahoua@univ-boumerdes.dz

تاريخ الاستلام: 2022/12/28 تاريخ القبول: 2022/12/30 تاريخ النشر: 2022/12/31

لتوثيق هذا المقال: أسلوب إيزو 690-2010

مرناس، مصطفى، بن ضحوى، خيرة، ديسمبر 2022 . سيميائيّة التّشاكل المكاني في ديوان سقط الزّند " نماذج شعريّة"*مجلة التراث*، المجلد 12، العد 04 من ص84 ، إلى ص 95.[*ISSN: 0339-2253 E-ISSN 2602-6813*].

TO CITE THIS ARTICLE: Style ISO 690-2010

Mustapha Mernas, khaira bendahoua, December 2022. The semiotics of spatial morphology in Diwan Fall al-Zind "Poetic models" *AL TURATH Journal*. volume 12, issue 04, P 84, P95. *[ISSN: 0339-2253 E-ISSN. 2602-6813]*.

تنبيه:

ما ورد في هذه المجلة يعبر عن آراء المؤلفين ولا يعكس بالضرورة آراء هيئة التحرير أو الجامعة وتخضع كل منشورات للحماية القانونية المتعلقة بقواعد الملكية الفكرية، ويحمل أصحابها فقط كل تبعات مؤلفاتهم.

Attention:

What is stated in this journal expresses the opinions of the authors and does not necessarily reflect the views of the editorial board or university. All publications are subject to legal protection related to intellectual property rules, and their owners only bear all the consequences of their literature.

Open Access Available On: https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/323

OPEN ACCESS

creative commons

V .4 .0abbessimoh

*د.ط مرناس مصطفى: البريد الإلكتروني: m.mernas@unvi-boumerdes.com

ملخص:

تروم هذه المقالة إلى إبراز علاقة الشّاعر أبي العلاء المعري بالمكان ، ومدى حضوره في قصائده ، بالمقابل ستكشف لنا هذه الورقة البحثيّة أهم عوالم التّشاكل المكاني التي توحي بها الأمكنة حال وجودها بشكل أو بآخر في بعض المقاطع الشّعريّة ، وإلى جانب البحث عن سيميائيّة التّشاكل المكاني الذي هو جوهر الدّراسة سيتبيّن لنا من خلال عرض بعض النّماذج من ديوان سقط الزّند لأبي العلاء المعري أنّ للمكان دورٌ في صقل موهبة الشّاعر وأنّه مصدر تكوين التّجربة الشّعريّة الشّعوريّة باعتباره أوّل محطّة ينطلق منها أي شاعر، وبصورة واضحة يمكننا تحديد معالم تشاكل الأمكنة من خلال ذلك التّنقل الذي هو معروف عند الإنسان العربيّ في أفضية مكانيّة مختلفة، تجعل الشّاعر في موقف إلغاء الزمن من حين لآخر.

كلمات مفتاحية: المكان؛ سيمياء؛ تجربة؛ سيمياء؛ التّشاكل.

Abstract:

This article aims to highlight the relationship of the poet Abu Al-Ala Al-Ma'arri with the place, and the extent of its presence in his poems. The main part of the study will be shown to us by presenting some samples of the Diwan Chute du Zind d'Abou Ala Al-Ma'arri that the place plays a role in the refinement of the talent of the poet and that it is the source of the formation of the poetic emotional experience as the first station from which all poet part, and clearly we can identify the characteristics of this formation of places of It is known to the Arab person in different spatial terms, which places the poet in the position to cancel the time from time to time.

Key words: Place; money; semiotics; experience; poetics.

مقدمة:

شغل المكان حيزًا كبيرًا في شعر الشّعراء الجاهليين، ذلك أنّه نقطة البداية التي يستجمع فيها هؤلاء ما يجول في خاطرهم، عندما يستوقفهم الفضاء المكاني الذي عاشوا فيه، ولولا هذا التّوقف عند تلك الدّيار لما كان للملكة الشّعريّة أن تظهر في لحظة استرجاع تلك الذّكريات الغائرة في حيز الزّمن الماضي، وسرعان ما يبدأ ذلك الحنين والوجد إلى لقطات من الذّاكرة ترجع صور كانت مشتتة في ذهن الشّاعر لتترسم وتتشكّل في حدود البناء العام للقصيدة إنّه المكان الذي لم يستطع الشّاعر مفارقته لأنّه مصدر الإلهام بالنسبة له.

إنّ المكان بالنّسبة للشّاعر الجاهلي ليس مجرد مساحة جغرافيّة أو حدود تعبر عن انتمائه بل هو جزءٌ من سجلّه الذي يُخزّنُ فيه تلك اليوميات التي تعكس تلك الحياة القاسية للإنسان العربي وما كان يواجهه من مخاطر ومصاعب، وبحكم هذه التّجربة القديمة قدم الشّعور الإنسانيّ فإنّنا يمكن استنتاج أنّ هناك علاقة بين الشّعر والمكان فهي "علاقة عميقة الجذور ، متشعبة الأبعاد ، ومن خلالها قد يصبُّ الشّعر على مكان ما طابعًا خَاصًا ، فيُحولهُ من مسكن خُرِبَ إلى طلل مثير ومن حجر أصم إلى شاهد على لحظات مجد أو وجد ، وقد تلتزم بعض الأماكن شاعرية تكاد تلازمها كالقمر والبحيرة والغابة وغيرها من الأماكن التي غفلها الرومانسيون على نحو خاص بهالة شعريّة دائمة "[1]، لذلك فإنّ للمكان حضورٌ قويّ في الشّعر العربي منذ ظهوره لأنّه كان مبعثًا لإثارة الشّاعر حتى يُخرج ما بداخله من أحاسيس وعواطف تجعله يشعر بالارتياح وقت تذكّر المكان الذي يُحبّه فلا قيود تمنعه من أن يُفصح عن مكنوناته ، فكلما مرّ على مكان يعرفه بدأت قريحته الشّعريّة تفيض وبدلاً من أن يصف المكان بما فيه يصير عاشقًا له كونه مصدرًا لتلك الذكريات الجميلة مع الأهل والأصحاب والأحباب " حتى إنّ هذا الحب لَيتحول في بعض مراحله ، فلا يصبح علاقة ذات صوت واحد ، ينبعثُ من الكائن العاشق إلى المكان المحبوب ، ولكنّه يتحوّل كذلك إلى صوت ينبعث من المكان الذي يحنُّ إلى عاشقيه "[2]، ومن هنا يبدو هذا الحب للمكان يأخذ أشكالاً متعدّدة ارتبطت بالموقف الذي يُظهرهُ الشّاعر اتّجاه المكان ، فالمكان يحمل قيمته بقدر ذلك الاهتمام الذي يوليه الشّاعر له ، ولولا هذا الاهتمام لما وجدناه ينسج خطاباته وهو يحاور المكان بشاعريّة قويّة تأخذ القارئ في عمق التّصور وتسرح به تارة في فضاء مكاني حقيقي ، وتارة أخرى في فضاء مكاني خيالي ، وما هذه الرّحلة إلاّ رحلة في مواجهة الزّمن .

- **أسباب اختيار الموضوع:**

إنّ من الأسباب الّتي دفعتني إلى اختيار هذا الموضوع هو:

- أهمية حضور المكان في شعر أبي العلاء المعرّي باعتباره عاملاً مؤثرًا في تكوين التّجربة الشّعريّة.
- أنّ المكان يعتبر جزءًا مُهمًّا بالنّسبة للإنسان باعتباره مسرح يومياته ومُخلِّدًا لمآثره وكذا مَصدرًا لآمالهِ وآلامهِ.
- يعدّ المكان مصدرًا للمادة الشّعريّة التي يوظفها الشّاعر في قصائده.

- **إشكالية البحث:**

بناءً على هذا الطّرح الذي يدور موضوعه عن سيميائية المكان في ديوان سقط الزّند لأبي العلاء المعري انحصرت الإشكالية الأساس على النحو الآتي: كيف نظر المعري إلى المكان؟ وما هي الرّموز السيميائية التي عبرت عنها هذه الأمكنة؟ وهل سار المعري على منوال الشّعراء القدامى حينما تحدث عن المكان؟ وبعبارة أخرى ما تأثير المكان على نفسية الشّاعر؟ وكيف كان موقفه منه؟

- **فرضية البحث:**

قبل الإجابة عن الإشكالية الأساس في هذه الورقة البحثيّة نقدّم الفرضية التالية: يحدث على مستوى الأمكنة الّتي يصفها أبي العلاء المعري نوعٌ من التّشاكل، وينتج عنه رموزٌ سيميائية لها دلالات خفيّة.

- **أهداف البحث:**

تهدف هذه الدّراسة إلى إبراز علاقة الشّاعر أبي العلاء المعرّي بالمكان، ومدى حضوره في ديوان سقط الزّند هذا من جانب، ومن جانب آخر الكشف عن ذلك التّشاكل المكاني الّذي يحمل في باطنه رموزًا سيميائيّة لها علاقة بنفسيّة الشّاعر.

- **أهميّة البحث:**

تكمن أهميّة هذا البحث في تقديم نظرة مغايرة في دراسة النّص الأدبي القديم بآليات معاصرة تبتعدُ نوعًا ما عن الدّراسة السّطحيّة، كما أنّ هذه الدّراسة جاء لتغوص في عمق الخطاب التّراثي دون تعريته من أصالته، وبالتّالي ستَلفتُ أنظار الباحثين لمحاولة خوض تجربة ممتعة لسبر الأغوار واكتناه الأسرار.

- **الحدود الزّمانيّة والمكانيّة للبحث:**

تناول هذا البحث مدونة سقط الزّند لأبي العلاء المعري الصّادرة سنة 2007م بيروت-لبنان.

- **الدّراسات السّابقة:**

لا يخلو أي بحث من فكرة العودة إلى الدّراسات السّابقة كونها المحرّك لبداية البحث واكتشاف الثّغرات التي لم يتفطن إليها الباحث أثناء دراسته لذلك قبل البدءِ في تحرير هذه الورقة العلميّة قمت بنظرة فاحصة لبعض الدّراسات نوردُ منها ما يلي: مقال بعنوان" سيميائية المكان في شعر أبي حزم الأندلسي" للباحثة روان سكر، مجلة جامعة الشّارقة، وكذا التّشاكل والتّباين في شعر مصطفى الغماري، د. صالح الحلوحي، وأيضًا بعض كتب السّيميائيات وغيرها من الدّراسات.

- **منهج البحث:**

زاوجتُ في هذه الدّراسة بين المنهج السيميائي والمنهج الوصفي كما اعتمدت في بعض الأحيان على التّأويل بهدف جعل إبراز مدى انفتاح المكان على دلالات مختلفة خفية وظاهرة.

- **خطّة البحث:**

اعتمدت في هذا البحث على الخطّة التالية: مقدمة ومبحثين، المبحث الأوّل المكان في الشّعر الجاهلي، أمّا الثّاني، وفي الأخير ذيلتُ البحث بخاتمة عرضت فيها لأهم النتائج المتوصل إليها، وأتبعتها بالمصادر والمراجع.

المبحث الأوّل – المكان في الشّعر الجاهلي:

اكتسح المكان في الشّعر الجاهلي منذ أن كانت بداياته الأولى مساحة كبيرة، والدّليل على ذلك هو المقدمة الطّللية التي كانت بمثابة استنطاق للمكان، فالخطابات الشّعريّة القديمة تثبت بحقّ تعلّق الشّاعر الجاهلي بالمكان الذي يعتبر بمثابة السّلم الزّمني الذي يسير عليه في نظم القصائد، ومادام هنالك أفعالٌ مارسها الإنسان العربيّ" فكلّها أفعالٌ تخلف بحركتها أطلالاً تشير إلى حياةٍ كانت "[3]، وقد تكون جزءً من أحداثٍ عاشها الشّاعر لذلك يعمد إلى الوقوف كلّما رأى من آثار تلك الدّمن ما يعيد إليه ذاكرته الماضية " والوقوف عندها يفتح في الزّمن نافذة مشرّعة على الماضي السّعيد ، يدخل العربيّ منها فيرى ذاته في هذا المكان وقد وقّعَ الهناء الرغد إيقاعاته فوق المكان وليعرف ذاته أكثر، فينساح في الأرض باتجاه المكان مخلفًا وراءه المكان "[4]، وهو متنقلٌ من موضعٍ لآخر إنّه يرسم منحنى تلك الأمكنة وفي ذلك إلغاء لكلّ مكان قد وقف عليه مستذكرًا أو باكيًا وما هذا الشّعور إلاّ نتاج تأثير المكان في نفسيته يقول امرؤ القيس في معلّقته المشهورة :

قِفَا نَبكِ مِنْ ذكرى حَبيبٍ وَمَنْزِلِ بِسَقْطِ اللِّوَى بَينَ الدَّخَولِ فَحَومِلِ
فَتُوضحَ فالمِقْرَاةِ لم يَعْفُ رَسْمُهَا لِمَا نَسَجَتْهَا من جَنُوبٍ وشَمْأَلِ[5]

أليس المكان هنا بمثابة عملية استرجاع لأحداث تتّعلّق بحياة الشّاعر التي عاشها في الماضي، فسقط اللوى والحومل والدّخول كلّها أماكنٌ توحي بأنّ المجال الجغرافي الذي يقف عليه امرؤ القيس هو الصّحراء، لأنّها البيئة التي يعرفها الشّاعر حقّ المعرفة، فحينما يصف المكان يرجع به الحنين إلى أول منزلٍ تعوّد الشّاعر النزول به، هكذا نحسّ بنفس الشّعور الذي يحسّ به الشّاعر حينما نتذكر أنّ" البيوت المتعاقبة التي سكناها جعلت إيماءاتنا عادية ولكنّنا نندهش حين نعود إلى البيت القديم بعد تجوال سنين عديدة ، وباختصار فإنّ البيت الذي ولدنا فيه قد حفر في داخلنا المجموعة الهرمية لكلّ وظائف السّكنى ، إنّه رسم بياني لوظائف سكنى ذلك البيت المحدّد ، وكلّ البيوت الأخرى هي تنويعات على نفس اللحن ...إنّ كلمة عادة قد استهلكت كثيرًا فلا تصلح للتّعبير عن ذلك الارتباط الجامع بين أجسامنا التي لا تنسى والبيت الذي يستحيل نسيانه "[6]، فشّعر امرؤ القيس قد أحيا تلك الدّيار والرّسومات بمجرد وقوفه وكأنّه يعيش لحظات الماضي في ساعة الحاضر وهذا ما أيقظ شعوره وأحاسيسه فأخذه المكان إلى أبعد الحدود فتارة يرمي به إلى أيقونة الزّمن الماضي وتارة يستيقظ من ذلك الحلم فيعود إلى زمن الحاضر فهل يتمنى أن يعود ذلك الزّمن أم يتمنى أن يجعل هذا الزمن نقطة انطلاقة جديدة كي يصل إلى المستقبل؟ أم يريد أن يعيش لحظات يستعيد فيها أسماءً لمن يحبهم؟

إنّ المكان إذن هو خريطة مُجسدة على أرض الواقع يعرف بها الشّاعر هويّته الضائعة في غياهب الماضي، ولولا قربه من المكان لما استعاد بعض التّفاصيل والأحداث من حياته المفعمة بالأسرار التي تدّل على الحياة البسيطة التي تقوم على التّرحال ومواجهة المصاعب.

وعليه فمحاولتنا التّوغل في قضية المكان في الشّعر الجاهلي تفرض علينا أن نبحث عن كلّ ما له علاقة بالمكان بمعنى ما يكون همزة وصل بين الإنسان والمكان، ولا شك أن تصورنا هذا يأخذنا إلى أنّ هناك جاذبيّة بين الطّرفين السّابقين، ألم نتساءل عن هذه الجاذبية التي تجعل الإنسان يمكث في مكانٍ معيّن أو يرتحل من مكان إلى آخر؟

الجواب هو أنّ الإنسان لا يمكن أن يقطع الصّلة بالأماكن التي تجلب له الرّزق وليس كلّ الأماكن قد تكون مصدرًا للعيش " فهناك أماكن جاذبة تساعدنا على الاستقرار، وأماكن طاردة تلفظنا، فالإنسان لا يحتاج فقط إلى مساحة فيزيقية جغرافيّة يعيش فيها، ولكنّه يصبو إلى رقعة يضرب فيها بجذوره وتتأصل فيها هويته... ومن ثم يمكن القول إنّ هناك أماكن مرفوضة وأماكن مرغوبا فيها، فكما أنّ البيئة تلفظ الإنسان أو تحتويه، وإنّ الإنسان –طبقًا لحاجاته – ينتعش في بعض الأماكن ويذبل في بعضها ، وقد تكون أماكن مطلوبة لأنّها تمثّلُ الملجأ والحماية التي يأوي إليها الإنسان بعيدًا عن صخب الحياة "[7] باحثًا عن سبل العيش الهنيء من أكل وشرب وكلأ.

وإلى جانب هذا الدّور الذي المكان في حياة الإنسان العربي جاء الشّعر الجاهلي ليؤكد ذلك حينما يصبح المكان الصّورة الحقيقيّة لكيان المرء " حيث يلعب دورًا هامًّا في تكوين هويّة الكيان الجماعي، وفي التّعبير عن المقومات الثّقافية، كما أنّه يصبح إشكالية إنسانيّة إذا ما اغتصب، أو إذا حرمت منه الجماعة، ولذا فإنّه يكتسب قيمة خاصة " فمن أمثلة ذلك الحروب الطّاحنة التي كانت بين قبائل العرب أليست هي ردّة فعل كلّ طرف يحاول كلّ منهما الحفاظ على المكان بما فيها من طقوس وشعائر؟ أليس هذا نموذج لإثبات ملكية المكان ومحاولة لإثبات الهويّة؟، أمّا حينما تترك الجماعة المكان الذي يجمعهم لظروف خارجة عن إرادتهم فإنّ المكان في هذه الوضعيّة يُصبح مجرد رسوم من الماضي أكل عليها الدّهر، بالمقابل لن ينظر الشّاعر إلى هذا المكان بنفس النّظرة، بل سيقف ليتذكر بعض اللحظات الجميلة، فيحدث في نفسيته انفعالاً يجعله يؤمن بأنّ كلّ الأحداث التي عاشها جعلت منه يعترف بأنّ المكان هو نفسه الموطن الذي يحنّ إليه الإنسان ، وهو مما يمثّل دورة الحياة التي تشبه تلك السلسلة المكونة من حلقات تتكرر بنفس الظّروف وخير ما نستدل به من الشّعر الجاهلي أبياتٌ من معلقة لبيد بن ربيعة حيث قال :

عَفَـــتْ الدّيارُ مَحَـلُّهَا فَمُقَامُـــهَا بِمِنًـــى تَأَبَّدَ غَـوْلُهَا فَرِجَامُـــــهَا

فَمَـــدَافِعُ الرَّيَّانِ عُـــرِيَ رَسْـــمُهَا خَلَقًا كَمَا ضَمِنَ الوُحِيُّ سِلامُهَا

دِمَنٌ تَـــجَرَّمَ بَعْـــدَ عَـــهْدٍ أَنِيسِهَا حَجِجٌ خَلْوَانَ حَلُّاهـــا وَحَرَامُـــهَا[8]

يظهر من هذه الأبيات أنّ الشّاعر لبيد مولع بالدّيار التي عفت وتركها الأحباب، وهو بذلك يستحضر الأمكنة على لمح البصر، ويبدو أنّها أماكن توحي بأنّها ذات مصدر للعيش فالمدافع أماكن يندفع عنها الماء من الربى وهذا الماء الوفير قد تحوّل إلى سيل حطم تلك الدّيار وحوّلها إلى بقايا آثار ورسوم هامدة أكل عليها الدّهر بعدما كانت تدّب فيها الحياة، ورغم هذا الهجر والرّحيل إلاّ أنّ الدّيار تساقط عليها الأمطار، فاستحالت روضةً نبت فيها النبات والشّجر، وأصبحت ذات رزقٍ وفير.

لقد وقف الشّاعر لبيد عند هذه الدّمن والآثار ليس مستذكرًا فقط ومسترجعًا لما حدث بل وقف باكيًا ومستنطقًا لتلك الحياة الجميلة التي توحي برغد العيش وكأنّه يخاطب نفسه خطاب السائل يلوم من هجر ورحل عن أرضٍ يعمُّ فيها الخير من كلّ جانب، ولولا معرفة الشّاعر لهذه الأرض لما وقف حائرًا ومتأسفًا.

يمكن القول أنّ هذا الشّعور الذي يحسّ به شاعرنا قد عبّر عن العلاقة الوطيدة بينه وبين المكان باعتباره البيئة التي اجتمعت فيها كلّ ملامح الحياة المشتركة بما تحملها من عادات وتقاليد وأعراف، فصار المكان بحدّ ذاته هو الوِجْهَة التي تحدّد مصير العربي في تلك الفترة، فإذا أحسّ بالأمان بقي في المكان الذي أَلِفَهُ، وإذا أحسّ بالخطر يُحدّق به فليس له خيارٌ إلاّ أن يدافع عن أرضه فيخوض الحروب فإمّا البقاء أو الرّحيل يقول الحارث بن حلزة اليشكري:

لا يُقيمُ العَزيزُ بالبَلَدِ السَّـــهلِ ولا يَنْفَــعُ الــذَّليلَ النَّــجَاءُ

لَيْسَ يُنْجِي مُوَائِلاً منْ حَـذَارٍ رَأْسَ طَــوْدٍ وَحَــرَّةٌ رَجْــلاءُ[9]

المتأمل لهذين البيتين سيعرف أنّ صورة المكان له علاقة باستقرار الإنسان فالعزيز القوي في نظر الشّاعر لا يرض أن يعيش في أماكن الحرب ولو عاش فيها يمكن أن يدافع عن نفسه، أمّا الضعيف الذّليل فإنّه يلوذ بالفرار ولا يستطيع الدّفاع عن نفسه من بطش الظلم وربما يُقتل أليس المكان الذي يعمُّ فيه السّلام مصدر الاطمئنان والهناء؟

انطلاقًا من هذه النّماذج الشّعريّة ثبت أنّ الشّاعر الجاهلي وجد شعريّة المكان التي كان يبحث عنها وبذلك وصل إلى مرحلة الإبداع حينما شخصَ بصره وأعمل مخيلته وترك العنان لخياله، وبذلك أصبح " ينظر إلى المكان على أنّه عنصر من عناصر العمل الفني، وأصبح تفاعل العناصر المكانية وتضادها يشكلان بعدًا جماليًا من أبعاد النّص الأدبي "[10]، لذلك شكّل المكان في العصر الجاهلي بالنّسبة للشّاعر حافزًا لإيقاظ شاعريته من خلال تلك العلاقة التّرابطية المباشرة التي تُعيد الذّكريات وتضرب في جذور التّجربة التي يمكن لأي شخص أن يعيشها وسط تلك الظّروف ، وعليه كان المكان في الشّعر الجاهلي عاملاً يشترك فيه كلّ الأجناس والفنون الأدبيّة لأنّه عنصر جوهري في أي عمل أدبي.

إنّ أي علاقة يقيمها الشّاعر مع المكان هي علاقة وجدانية أي علاقة حبّ وتعلّق بالمكان لا يمكن أن يمحيها الزّمن ولا أن تُستبعد من السّجلات التّاريخية لحياة الإنسان منذ وجوده على سطح الأرض، فلطالما حاكى الإنسان المكان وجعله بمثابة الأنيس في لحظات اليأس، وقد يضفي على المكان نفس الشّعور الذي يشعر به، وكأنّه يجعل احساسه واحساس المكان في مرتبة واحدة، فهاهو يحاكي النّهر تارة، ويحاكي الجبل تارة أخرى، وقد يقيم بينه وبين المكان حوارًا طويلاً يعبر فيه عن كوامن الشّجن والاشتياق والحرمان ، وهذا دليل على موهبته التي ليس لها حدود ، وبتعبيره هذا يريد أن يقول أنّه ليس الإنسان من يخفف عن أخيه الإنسان فقط ، بل المكان أيضًا له فاعلية ودورٌ في مشاركة الشّاعر همومه وأفراحه فمتى أحس بالارتياح أحسّ أيضًا بالأمان لأنّه وجد في المكان متنفسًا لزوال التعب واليأس.

المبحث الثّاني – التّشاكل المكاني من الاتساع والامتداد إلى الارتفاع والانخفاض:

بعد عرض بعض الأمثلة من الشّعر العربي القديم والتي بيّنت الدّور الذي لعبه المكان في حياة الإنسان بصفة عامّة، وحياة الشّاعر بصفة خاصة، بقي لنا تحديد سيميائية التّشاكل المكاني في ديوان سقط الزّند لأبي العلاء المعري من خلال تحديد معالم تشاكل بعض الأمكنة ودلالتها في سياق الخطاب الشّعري، ومن ثمّ سيتضح مفهوم التّشاكل على مستوى الاختلاف بالنسبة لكلّ مكان يلفت إعجاب الشّاعر المعري سواءً المكان الممتد أو المكان المرتفع، أو المكان الذي تكثر فيه الشّعاب والمسالك.

لطالما وَصَف الشّعراء المكان الممتد على أنّه تلك المساحة الجغرافية ذات الامتداد الواسع الشّاسع والتي يصعب وصفها وصفًا دقيقًا سوى بعض المواضع التي تجذب النّظر وتثير الإعجاب، ولا شك أنّ الصّحراء من بين الفضاءات الممتدة التي أخذت

حظًا كبيرًا في قصائد الجاهليين، فما من قصيدة نقرأها إلاّ ونجد فيها وصفًا للصّحراء بكلّ مكوناتها، وحتى وإن لم نجد اسم الصّحراء فإنّنا نجد أسماءً أخرى لها وهذا دليل على تميّز الشّاعر وقدرته على التّنويع في أسماء الأمكنة ، وقد نجده أحيانًا يستعمل للمكان الواحد عدّة دلالات سواءً حقيقية أو مجازية .

عندما نعود إلى ديوان سقط الزّند لأبي العلاء المعري سنجد أنّ المكان له حضورٌ في بعض قصائده والتي تدّل على أنّه اتّخذ المكان جزءًا من مادته الشّعريّة وخطوةً لتمثيل مسرح الحياة العربيّة بجميع أشكالها وهي بالطّبع تعكس مدى الانقياد الحتمي للمكان يقول أبو العلاء المعري:

وَذُكِرْنَ مِـــنْ نَيْلِ الشّـــريفِ مَوِرِدًا فَمَا نِلْنَ منهُ غَيْرَ شِرْبٍ مُـــصَرَّدِ
ولَأَحْتْ لَهَا نارٌ يُشَـــبُّ وَقُوْدُهَا لِأَضْيَافِهِ في كلِّ غَـــوْرٍ وَفَـــدْفَدِ
بِخَرْقٍ يُطيلُ الجُنْـحُ فيه سُجُدَهُ ولِأَرْضٍ زِيُّ الـرّاهِـــبِ الـــمُتَعَبِّدِ
وَلَوْ أَنْشَدْتَ نَعْشًـا هُنَـاكَ بَنَاتُهُ لَمَاتَتْ وَلَمْ تَسْمَعْ لَهُ صَوْتَ مُنْشِدِ[11]

يظهر التّشاكل المكاني في هذه المقطوعة الشّعريّة عندما تلتقي كلّ المتضادات من خير وشرّ في فضاء يسمى الفلاة على أنّه من الأفضية المكانية التي توحي بالقفر الموحش الذي يتسّم بالغموض، فإذا قرأنا الأبيات واحدًا تلوى الآخر سنجد أنّ الشّاعر يذكر بعض المواضع في الصّحراء تدّل على الامتداد كالفرقد والخرق وهي أماكن تُوصَف بالجدب أي أنّها تلك الأراضي البيضاء المقفرة لا نبات فيها ولا ماء، لذلك يمكن تمثيل هذا الفضاء المكاني وفق نوعين من التّشاكلات على مستوى الخطاب الشّعريّ وفق محورين كالآتي:

مخطـــط رقم (01)

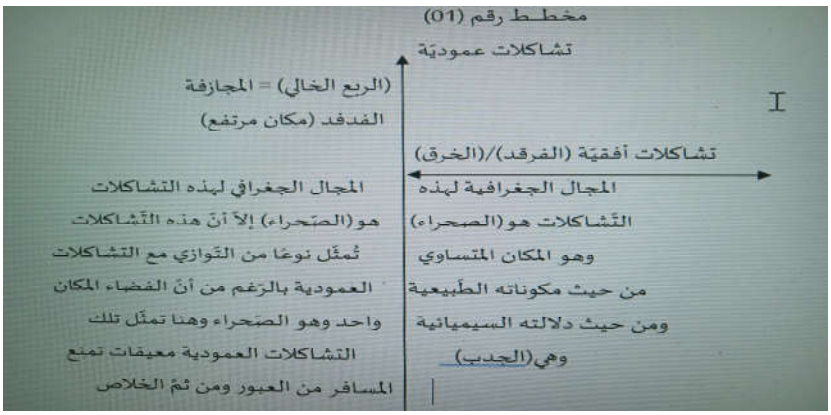

يُحيلنَا هذا المخطط إلى وجود نوع من التّباين والاختلاف بين المحورين: محور التشاكلات الأفقية ومحور التّشاكلات العمودية حيث إنّه لو رجعنا إلى اللوحة التي رسمها المعري سنجد أنّ " المحور العمودي يضطلع بالتّوترات بين حالات الضوء المكانيّة المختلفة والتحويلات التي تسمح بالعبور من حالة لأخرى عن المحور البصري الذي يدرك هذه التحويلات المختلفة ويقيمها "[12] لذلك نعتبر المحور الأفقي محور يشهد تلك الرتابة على مستوى الأفضية التي تتسم بانعدام متطلبات الحياة.

إذن التفسير الذي يمكن وضعه في هذه الحالة هو:

تشكلات عمودية = حاجز ومانع = عدم العبور وتجاوز تلك الأفضية المكانية.

تشاكلات أفقية = مساعد = المرور وتجاوز الأفضية الصّعبة.

لهذا نعتبر التّشاكلات الأفقية بمثابة الكلّ، أمّا التّشاكلات العمودية فهي بمثابة الجزء.

وعلى هذا الأساس يظهر لنا موضع التّشاكل وهو الصّحراء كمتداد للمساحة، ولكن في ضمن هذا الامتداد لابدّ أن يظهر ذلك التجانس بين الشّبكات العلائقية التي تُمثّلها التّشاكلات العموديّة بما أنّها جزء، فالربع الخالي والفدفد لا تأخذ الجزء الكبير من التّشاكل بل تكون مُشاكلات موزّعة تتبادل المواقع.

عبّرت المواضع السّابق ذكرها عن مدى وجود تشاكلات موازية لبعضها البعض خاصة في بيئة معروفة والتي كشفت عن بعض أسرار الطّبيعة القاسية التي تنعدم فيها علامات أو إشارات يستدل بها المرتحل في عرض الصّحراء وما هذه الرّحلة التي صاحبت الإنسان العربي ما هي إلاّ نوعٌ من المجازفة، هي رحلة البحث عن الماء والكلأ والطّعام وهي صعبة للغاية فبعدما يمشي ذلك المسافر في أرض واسعة مقفرة يجد نفسه في لحظة مواجهة المجهول فهو يعرف أنّ الخطر يُحدّق به بين الفينة والأخرى ، إلاّ أنّه في نفس الوقت حَذِرٌ ومستيقظ ، وسرعان ما يقطع مسافة طويلة يشتدُّ عليه البلاء، ويقف حائرًا حيالَ هذا الموقف الصّعب إلى أن يصل إلى الرّبع الخالي أيتقدّم ويواجه كلّ ما يعترضه أم يفكرُ في العودة من حيث أتى ولكن لا خيار لأنّ العودة مستحيلة والتقدم مستحيل فما الحلّ إذن ؟ إنّه يعود ويتوارى وراء الكثبان الرّملية لعلّ الفرج يأتيه وينجو بنفسه، لقد مرّ من مواضع مختلفة تارة بين الامتداد لِتُصْبِحَ الرؤية منعدمة، وتارة أخرى بين المرتفعات التي تحجب ما وراءها وهذا التّشاكل المكاني المختلف بيّن للمسافر أنّ الترحال في الصّحراء يجب أن يكون بدليل يعرف كلّ تلك المسالك وإلاّ كانت النّهاية الضياع في الخلاء ومن ثَمَّ الفناء.

وعليه يمكن وصف عملية البحث عن التّشاكل الموجودة في الخطاب على أنّها " مغامرة سيميائية تحاول فك رموز الخطاب دون أن يعني ذلك إحالته إلى كومة من شفرات وقرائن لا عمق دلالي وراءها ، إنّما هي بالفعل طموح إلى هدم الجدارية المعيارية الثابتة وتفكيك النّص وتشريحه وفق أدوات إجرائية تستند إلى رصيد معرفي ، وخبرات قرائية متنوعة ضمن مناخ استفهامي تساؤلي يرفض منطق الجواب ويؤيد عبث السّؤال "[13]، ومن ثَمَّ يبقى المجال مفتوحًا لقراءة النص الأدبي من أجل البحث عن المتغيرات الطارئة والتي نتجت عن فعل القراءة والتأويل الذي يختلف من قارئ لآخر، لأنّ مهمّة القارئ ليس تعرية الخطاب وتجريده من خصوصيته المعرفية بل مهمّته الوصول إلى العمق.

بعد هذه القراءة السّريعة للمقطوعة الشّعريّة السّابقة سنحاول الغوص في نموذج آخر للبحث عن التشاكل المكاني ولكن من زاوية نظر مختلفة عن السّابق بحيث سيتمّ التّركيز على العناصر الآتية وهي: التشاكل وعلاقته بالدلالة، التشابه وعلاقته بطبيعة التّشاكلات وانتشارها بحسب الفضاء المكاني، ومن ثمّ إثبات مدى حصول تلك التشاكلات العلائقية بين الوحدات في سياق الخطاب الشّعريّ.

يقول أبو العلاء المعري:

وَقُلْتِ للشّمسِ بالبيـــدَاءِ تِبْرٌ ... وَمِثْلُكَ مــنْ تَخَيَّلَ ثمَّ خـــالاَ
وَفـي ذَوْبِ اللُّجَيْنِ طَمِعْتَ لَمَّا ... رَأَيْـــتِ سَرَابًا يَغْشَـى الرِّمَالاَ
رَمَـــاكِ اللهُ مــنْ نَوْقٍ بِــرُوقٍ ... منْ السَّـــنَوَاتِ تُشْكِلُكِ الإِفَـالاَ
فَـقَدْ أَكْثَرْتِ رِحْـلَتَنَا وَكَانَــتْ ... صِغَارُ الشُّهْبِ أَسْرَعَهَا انْـتِقَالاَ[14]

يبدو من خلال هذا الخطاب أنّ المرسل هو امرأة واقفة في بيداء تتخيل بعض الصّور فكأنّما تاهت في بحر الخيال كي ترصد صورًا تبدو لنا عاديّة، إلاّ أنّنا لو تأملنا هذا الوصف لَنَجِدُ أنّ الشّاعر في كلّ مرّة يتلاعب بالألفاظ كي يرسم لنا لوحة فنيّة عن

الصّحراء شدت انتباه هذه المرأة ، لذلك نراه يستعمل ضمير المخاطب "أنتِ" يقول التبريزي موضحًا" كَما خَلْتِ النُّجومَ دُرًّا فَتَكَلَّفْتَ السّرى باللّيل كذلك خِلْتَ الشّمسَ شارقةً على البيداءِ ذَهَبًا، فَتَجَشَمْتَ التَّأْويبَ بالنّهار طمعًا في حيازة الذي حَكَتْهُ الشّمسُ بصفرتها "[15]، فلو أمعنت النّظر في الصّورة لوجدت من العلاقات التشاكليّة بين بعض العناصر التي وصفها الشّاعر قد حملت نفس الدّلالة لأنّها تشابهت واستوت فيها بعض الصّفات التي جعلت ذلك التّعالق والتّجانس يفتح نظرنا أكثر كي نعيد التدقيق فيما يرى النّاظر ، ومن زاوية رؤية جانبية خارجة عن تصورات وتخيلات الشّاعر فإنّ السّؤال الذي يجول في الخاطر ما الذي جعل هذا التّشاكل يحصل ؟ الجواب هو: أنّ اختيار الشّاعر للوحدات كان بناءً على اختياره لما يناسبها من حيث الدّلالة فهو بعد هذا الاختيار بحث في تلك الطّبيعة الجامدة عن عناصر مشابهة يمكن أن تزيد من جمال المنظر رغم أنّ البيداء تعتبر فضاءً مادته الأساسية الرّمال الصّفراء وهنا يكمن جوهر التّشاكل:

البيداء = الخلاء = الاتّساع والامتداد = طبيعة جامدة = غياب عنصر الجمال= لا تشاكل.

البيداء= رمال تصبح كالذّهب عندما تُشرق الشّمس= وجود عنصر الجمال = تشاكل.

إذن يمكن تفسير هذا التّشاكل بوجود علاقة التّشابه بين الشّمس والرّمال والذّهب ولولا اجتماع هذه العناصر لما حصل التّشاكل.

أمّا إذا عدنا إلى البيت الذي يليه نجد المعري يرسم لنا صورة مشابهة للصورة السّابقة بحيث يحصل التّشاكل هذه المرّة بين مكونات مختلفة موجودة في الطّبيعة إلاّ أنّ المكون الأساس للبيئة الصّحراويّة يبقى حاضرًا يقول التّبريزي شارحًا معنى البيت:" لما رأيتِ بياض السّراب يعلو الرّمال في البيداء ويغشاها، ظَنَنْتِهِ ذوبَ اللّجينِ، أي الفضة الذّائبة لِمُشَابَهَتِهِ إيَّاهُ بوصف البياض، فَطَمَعْتِ في حيازة الفضة، وأجْمَعْتِ المسير لِتَنَاليهَا"[16]، فتفسير هذا البيت يقوم على البحث عن العناصر التي ساهمت في حصول التّشاكل على مستوى الفضاء المكاني يمكن توضيحها كالآتي:

السّراب فوق الرّمال + البياض = اللّجين أي الفضة

إذن السّراب + اللّجين = علاقة تشابه وتشاكل وهو (البياض).

ومنه يمكن القول أنّ عنصر التّشاكل تحقّق عن طريق اشتراك بعض العناصر لوجود تشابه أضافه الشّاعر أثناء تعالق الوحدات على مستوى زاوية النّظر بالنسبة للشّاعر، وعليه فإنّ فعل المشاهدة عند الشّاعر يختلف عند بقية النّاس، ولكن قد " تستحوذ صور العمى والانبهار على الشّاعر فهي غالبًا ما تتكرر في مجموعته الشّعريّة " [17]

إنّ مثل هذه الصور والأشكال التي وصفها المعري " عرفها الشّعراء فارتسمت صورها في أذهانهم، وحدّدوا أبعادها هندسيًا، فكان ما استطال منها حبلاً وما اعوج حَقَفًا، وما استدر دعصًا، وما كان بين التّقطع والاتصال منها فهو سقط، وما احدودب كثيبًا ونَقًا، وبقيت هذه الأشكال واضحة يستمد منها الشّاعر صوره ، ويعقد بينها وبين ما يريد الحديث عنه تشبيهاته ومثلما وجد الشّعراء في الجبال أمكنة يذكرونها في أشعارهم كذلك وجدوا في أسنمة الرّمال المتناثرة وكثبانها أمكنة يقفون عندها في أحاديثهم وحكاياتهم"[18]، فهذه الأوصاف الأماكن التي وصفها هؤلاء تعتمد على فعل المشاهدة بالدّرجة الأولى ما يجعلنا ننساق وراء فكرة أنّه " عندما ننظر إلى الأشياء حولنا في الحياة اليوميّة نكتسب إحساسًا بالعمق مصدره جهازنا البصري الثّنائي ، والقدرة على تحريك رأسنا دائريًّا والتحرك لمتابعة ما ننظر إليه ، وللحصول على رؤية أفضل نستطيع ضبط بؤرة أعيننا "[19] ألا يمكن أن يكون الشّاعر في هذا الموقف أثناء وصفه للأماكن ؟ بالطّبع يكون الشّاعر في مثل هذه المواقف يقوم بتصوير المنظر

ولكن لا يعتمد على الوصف الدّقيق إنّما يعمد إلى إقامة علاقات ترابطيّة بين الدّال والمدلول، وأثناء إقامة هذه العلاقات يترك مساحة لخياله كي يضفي على الصّورة بُعدًا جماليًا يشدّ القارئ، مما يُحدث تجاوبًا إيجابيًّا يجعل هذا الأخير يفك الشّفرات الموجودة في المنظر الموصوف.

ومجمل القول أنّ للشّاعر الحريّة الكاملة في نسج خطاباته الشّعريّة بأي شكل من الأشكال انطلاقًا مما يشاهده، فليس كلّ ما يراه ينال إعجابه ولكنه يملك الخيال الواسع ليجعل الطبيعة الصامتة حيّة بحيث تختلف الرؤية من عاطفة الملل والنفور إلى عاطفة الإعجاب والانجذاب، لذلك تراه يختار وينتقي لقصيدته مكونات لها تأثيرٌ بالغ في نفس القارئ تجعله يعيش نفس الشّعور الذي يعيشه الشّاعر في تلك اللّحظة.

خاتمة:

بناءً على ما سبق تناوله في هذا المقال يمكن القول أنّ المكان من العناصر المهمّة التي لا يمكن لأي شاعر أن يُهملها لأنّ الشّاعر بطبيعة الحال يختار الفضاء المكاني قبل أن ينظم شعره، وربما اختار فضاءً أوسع ثمّ يبدأ بالانتقال من موضع لآخر حتى يجلب انتباه القارئ وهذا ما رأيناه في بعض النّماذج من الشّعر الجاهلي، أمّا عند تقديمنا لنماذج من ديوان سقط الزّند كان الهدف هو البحث عن التّشاكل المكاني، وبالتالي توصلنا إلى بعض النتائج نذكرها كالآتي:

1 – المكان هو المنطلق الأوّل لبدايات الشّعر الجاهلي، لأنّه مصدر الإلهام والتّجربة الشّعريّة التي يعيشها الشّاعر.

2 – المكان بالنّسبة للشّاعر سِجِلٌ تاريخيّ شاهدٌ على الأحداث.

3 – مَثَّلَ الوقوف بالطّلل تجسيدًا قويًّا للمكان في نفسية الشّاعر.

4 – يعتبر المكان عنصرًا مُهمًّا في حياة الإنسان كونه مصدر منبع الرّزق والاستقرار من جهة، ومنبع الجدب والاضطراب من جهة أخرى، فقد وصف الشّعراء حياة التّرحال في قصائدهم وما كان ذلك الوصف إلاّ محاولة لرسم صور المعاناة والقساوة من أجل البحث عن القوت اليومي.

5 – مَثّلَ ذلك الامتداد المكاني بالنّسبة للشّاعر أبي العلاء المعري مساحةً ومُتَنَفَسًا لبسط تجربته.

6 – يُعدُّ المكان هويّة الكيان الجماعي في الماضي والحاضر، ويعتبر من المقومات الثّقافيّة التي تشهد على عراقة وأصالة أي شعب.

7 – يتحقّق التّشاكل المكاني في شعر أبي العلاء المعري عن طريق وجود تجانس ممكن بين الشبكات العلائقية الموزّعة في مواقع مختلفة من الفضاء المكاني الممتد.

8 – يمكن بناء بعض التشاكلات عن طريق إقامة علاقات بين مجموعة من العناصر والوحدات لوجود تشابه يحقّق ذلك التساوي والتوازي على مستوى الخطاب الشّعري.

وفي الأخير ينبغي الإشارة إلى نقطة مهمّة مفادها أنّ مصطلح التّشاكل يبقى من المصطلحات الصعبة المنال، فقد وقع جدلٌ كبير بين الباحثين بسبب مشكلة ضبط المصطلح كأداة إجرائية، وهذا ما خَلَّفَ أراءً متضاربة، فمن رأي يقول بأنّ المصطلح يؤدي معنًا وهو التّساوي في المكان، ومن رأي يرى أنّه يؤدي معنى التّباين واختلاف الأزمنة والأمكنة، ورأي ثالث يقول بأنّ المصطلح يمكن أنّ يعبر عن الدّلالة التّكراريّة في محتوى النّص فأيُّ الأراء يستند إليها الباحث اليوم؟

الهوامش:

[1] أحمد درويش، في نقد الشّعر والكلمة، ط1، دار الشّروق للطباعة والنّشر، القاهرة، 1417هـ-1996م، ص84.

[2] المرجع نفسه ، ص89.

[3] سعيد حسن الكموني، الطلل في النص العربي، ط1، دار المنتخب العربي للدّراسات والتوزيع والنّشر، بيروت-لبنان، 1419هـ-1999م، ص 20

[4] سعيد حسن الكموني، ص 20.

[5] امرئ القيس، الديوان، مصطفى عبد الشّافي، ط5، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، 1425هـ -2004م، ص110.

[6] غاستون باشلار، جماليات المكان، تر: غالب هلسا، ط2، المؤسسة الجامعية للنّشر والتّوزيع، بيروت-لبنان، 1404هـ -1984م، ص44،43

[7] أحمد طاهر حسنين وآخرون، جماليات المكان، ط2، دار قرطبة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، 1988م، ص63.

[8] الحسن بن أحمد الوّزوني، شرح المعلقات السبع، لجنة تحقيق الدّار العالمية، بيروت – لبنان، 1993م.ص89.

[9] الحارث بن حلزة، الدّيوان، ط1، دار الإمام النّووي للنّشر والتّوزيع، دمشق، 1415هـ-1994م، ص69.

[10] أحمد طاهر حسنين وآخرون، جماليات المكان، ط2، دار قرطبة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، 1988م، ص3.

[11] أبو العلاء المعري، الدّيوان، تع: أحمد شمس الدّين، دار الكتب العلمية، لبنان، 1971م، ص79.

[12] جاك فونتاني، سيمياء المرئي، تر: علي أسعد، ط1، دار الحوار للنّشر والتّوزيع، بيروت – لبنان، 2003م، ص 143.

[13] عبد القادر فيدوح، دلائلية النّص الأدبي، ديوان المطبوعات الجامعية، 1993م، ص33.

[14] أبو العلاء المعري، الدّيوان، دار بيروت للنشر والتّوزيع، 1376هـ -1957م، ص47.

[15] طه حسين، شروح سقط الزند، ط3، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1424هـ -1945م، ص31.

[16] المصدر نفسه، ص 32.

[17] جاك فونتاني، سيمياء المرئي، تر: علي أسعد، ط1، دار الحوار للنّشر والتّوزيع، بيروت – لبنان، 2003م، ص75.

[18] نوري حمودي القيسي، الطبيعة في الشّعر الجاهلي، ط1 دار الإرشاد للنشر والتوزيع، 1390هـ -1970م، ص27.

[19] دنيال تشاندلر، أسس السيميائية، تر: وهبة طلال، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، 2008م، ص274،273.

المصادر والمراجع:

3 -أبو العلاء المعري، الدّيوان، تع: أحمد شمس الدّين، دار الكتب العلمية، لبنان، 1971م.

2 -أبو العلاء المعري، الدّيوان، دار بيروت للنشر والتّوزيع، 1376هـ -1957م.

3 – أحمد درويش، في نقد الشّعر والكلمة، ط1 دار الشّروق للطباعة والنّشر، القاهرة، 1417 هـ-1996م.

4 -أحمد طاهر حسنين وآخرون، جماليات المكان، ط2، دار قرطبة للنشر والتوزيع الدار البيضاء، 1988م.

5 -امرئ القيس، الديوان، مصطفى عبد الشّافي، ط5، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، 1425هـ -2004م.

6 -جاك فونتاني، سيمياء المرئي، تر: علي أسعد، ط1، دار الحوار للنّشر والتّوزيع، بيروت – لبنان، 2003م.

REFERENCES IN ROMAN SCRIPT

Al-kutub, waal- maraji bial-lughat- arabiat

1 -'Abu Al-Ala' almaeari, alddywan, tara : 'Ahmad shams aldin, dar al-kutub al-eilmiati, lubnan, 1971m

2 -'Abu aleala' almaeari, alddywan, dar Bayrût li-lnashr wa-lttwzye, 1376hi -1957m.

3 – 'Ahmad darwish, fi naqd alshsher wa-lkalimati, ta1 dar al-soushorok li-altibaeat wa-lnnshr, alâchirait, 1417 ha-1996m.

4 –'Ahmad tahir Hassanine wa–akhrun, jamaliaat almakane, ta2, dar qurtubat li–alnashr wa–al–tawzie aldaar al–bayda', 1988m.

5 –amri alqayse, al–ddywan, mustafaa eabd al–shshafy, ta5, dar al–kutub aleilmiati, Bayrût – lubnan, 1425hi –2004m.

6 –jack fontaine, simya' almaryiy, tur : eali 'aseadu, ta1, dar al–hiwar li–alnnshr wa–alttwzye, bayrut – lubnan, 2003m.

OPEN ACCESS

creative commons

V .4.0

JOURNAL INDEXING

مَجَلَّةُ اَلتُّرَاثْ

AL TVRATH Journal (ALTJ)

ثلاثية، دولية، دورية، محكمة، تعنى بالدراسات الإنسانية والإجتماعية

متعددة التخصصات، متعددة اللغات

Trimestral, International, Periodic And Arbitrated Manner, Devoted To Human And Social Studies

Multidisciplinary, Multilingual.

LEGAL DEPOSIT: 2011- 1934 **ISSN: 2253-0339** **E-ISSN: 2602-6813**